صوفى عبدالله

كانت تضحك ، وتتكلم ، وتجامل ... ولكن شيئا فى اعماقها كان بعيدا كل البعد عن كل ما حولها .. حاولت ان تتجاهله حاولت ان تندمج فى جو المرح الذى يحوطها ، ولكنه كان يجذبها اليه ! فلا الزوج ، ولا الاصدقاء ، ولا التورته التى ناءت بالعشرين شمعة ، بقادرة ان تنتزعها من الاحساس العجيب ... من الدوامة القوية ! تغوص بها وتغوص أو تشدها عبر السنين الطوال !

وتواكبت خواطرها ....

ها هى تتحسس زهور الفل فوق راسها ، منبسقة بديعة .. وثوبها الابيض الناصع حول جسمها الرشيق الغصن . بينما كانت تتلقى التهانى من المدعوين ...

وهذا هو بجانبها بعد لحظات سيضمهما عش واحد .. انها تحبه ، ما فى ذلك شك ، تحبه بكل طاقة فتاة الثامنة عشرة ...

وأحست بيد تزحف على ظهرها وتضمها بشدة ، وسرى الى أعطافها سخونة الجسم الشاب الذى بجانبها ... واغمضت عينيها تحت اللمسات المشبوبة ، وماأودعت جسمها من نشوة .. وسمعت وسمعت همسا خافتا كله عذوبة ...

وانفرج فمها عن ابتسامة أودعتها كل ما يحمل قلبها الشاب من حب ولهفة ... ولم تلبث ان غاضت ابتسامتها، وحل محلها شعور بالالم والحسرة ...

هاهو العش الجميل الذى كانت تحلم به ، تحول الى جحيم ! .. كلا . انه ليس جحيما بالمعنى المألوف !

انها لا تفهم هذا الزوج المحب النفور العطوف ! .. لا تفهم تصرفاته فهو مقبل عليها .. ضيق بها ! حريص على أرضائها .. مستميت على الاحتفاظ بحريته فى الانطواء

والانزواء في أي وقت . وبغير سابق نذير انه لغز محير لا تستطيع فك رموزه !..

كم احنقها الفشل في حياة كانت تامل لها الذروة من النجاح ... احنقها الفشل لانها تحبه رغم نقمتها عليه ! ..

وكم تضاربت احاسيسها بين الحب والكره ، بين الالم والغضب ، بين الانتقام والتسامح ! ..

واشرق امامها بصيص امل بعد ان اعيتها احواله المتناقضة ، وشل تفكيرها الموقف المائع .

لماذا لا ينفصلان بالحسنى ، ويظلان صديقين ؟ لان يكون صديقا كريما ، خير ان يكون زوجا ناقما مغلوبا على امره ـ

وفاتحته في الامر ، فانكره بشدة . وأربد وجهه ، ثم لم يلبث ان وعدها بالتفكير فيه ... ولكن ما باله يراوغ ويماطل ، ويتهرب من المواقف التي يرى انها ستودي الى فتح الموضوع مرة ثانية ! ..

يجب اذن ان تخطو هي الخطوة الاولى ، لعل احجامه ليس ناجما من عدم رغبته في الانفصال ، بل حرصا منه على ان تكون هي البادئة ! ..

آه ! هاهي طفلتهما الاولى في الطريق . كلا ! لن تسمح ان ترى نور الحياة لن تتورط كالبلهاء في انجاب مكتوب عليه التعاسة قبل ان يولد ... لن توافق !.. لن توافق !..

ولكن ايامهما لم تكد كلها تعاسة ... فهناك لحظات من السعادة كانت تجمعهما بشدة ! .. حتى ليظنا ان العالم لا يساوي شيئا بجانب الحب الذي ينشدانه معا !.. بجانب الارتباط القوي الذي يشد أحدهما الى الآخر ! ..

نعم . كان نوع ارتباطهما عجيبا ! ففي الاوقات التي كانا يشعران فيها ان كلا منهما يبغض الآخر حتى الموت !.. في هذه الاوقات بالذات يتحرك في اعماقهما احساس غريب ... احساس يتفجر حبا قويا سخيا مضحيا !.. حبا لا يستطيعان الافصاح عنه حتى ولو أرادا ذلك !

كانت هذه الاحاسيس تجعلهما يقفان أمام رغبتهما في الانفصال مكتوفي الايدي ، يحجم كل منهما عن ان يخطو الخطوة الاولى ليلقى القنبلة التي يعلمان انها ستقضي على حياتهما معا ! ..

ليتهما يتشاجران ! ليتهما يتغاضبان !.. ان شيئا

من هذا لم يحدث بينهما ! . بل هو التوتر والتوجس والريبة لاشياء لا يدريان مبعثها بالضبط ! ..

هاهي طفلتهما الاولى تبرز للوجود ... جميلة موفورة الصحة والعافية . لكنها للاسف . لم تحمل معها ما كانا يطمعان فيه من استقرار وهدوء ! .. بل لعلها زادت الحالة تفاقما !.. كيف ؟ لا تدرى !.. انما هو هدوء ظاهرى هدوء يحمل بين طياته كل معانى التحدى .. الهدوء الذى يسبق العاصفة ....

هنا الطفلة تكبر ، وتملا البيت نغما جميلا ... ولكنه لا يحس بها ! احيانا تجده مقبلا عليها ، هاشالها ، يحضنها فى هيام ! واحيانا اخرى تجده ساخطا عليها ، متحاشيا لها ، ينظر اليها نظرات كراهيـــة وحقـد ! هـكذا دون سبب واضح ! ..

وما كان يحدث مع الطفلة غالبا ما يتكرر معها !.. فتحس به موزع النفس ، ممزق الاحاسيس لا استقرار فى حركاته ، ولا طمأنينه فى تصرفاته !..

وفجأة هوى . وقع صريع مرض عضال ، وراح يتقلب بين براثنه التى لا ترحم ، وتحت وقر الحمى وأكياس الثلج على راسه ، وعيادة الاطباء ، أخذ يهذى .. يهذى بكلمات متقطعة مملوءة مرارة وأسى ! ..

« كلهن سواء ... الام .. والزوجة .. والابنة .. شيطانات كلهن مهما تقدم بهن الزمن ! ..

وكلام كثير غامض .. متقطع ... تبرز فيه دائما كلمة تتكرر وسط ركام متناثر لا معنى له .. « الام » ..

واحست بطعنة فى قلبها .. انه لم يخف عنها منذ اليوم الاول فجيعته بامه ، وما سببته له من طعنات ادمت قلبه ... ولكنها لم تكن تظن قط ان ما فى طبيعة تلك الام من المسخ والتفسخ ، اصابه بجرح غائر أحنقه على النساء جميعا !..

حتى هى لم تسلم منه ، ولا ابنتهما الوحيدة ! ..

ولم تستطع ان تغضب منه !.. لم تستطع ان تشعر بالسخط لانه نعتها بهذه النعوت التى هى منها براء ... بل على العكس . شعرت بينابيع حبها المكبوت تتفجر فى اعماقها !.. كل شوقها اليه ، وكل لهفتها عليه ، وكل حنانها الذى كانت تحتجزه ، تدفق وغمر كل ما حولها !.. حتى

الاشياء الصغيرة فى حجرة نومها .. الاشياء الصغيرة التى كانت تشعر نحوها بالكراهية ، لانها تذكرها بمعاملته الموجعة ... حتى هذه الاشـياء ، أحست نحوها بحنـان وحب واعزاز ! ..

الآن فقط انكشف لهـا السر المغلق ... سر الذى حارت فى معرفته مدى عشرين عاما ... نعم ! عشرون عاما قضتها تتخبط فى الظلام !..

ولكنها لن تكذب على الحقيقة ، ولن تفقد السعادة حقها .. ففى خلال هذه السـنوات العشرين ، احست بومضات حب جارفة كانت تنتشلهما معا ، من عالم الوجود القاسى الصلب .. الى عالم كله حب واقبال وسعادة ، ولكنها لا تلبث أن تنطفىء تحت وقر احساساته المجروحة ، التى لم تكن تدرى مبعثها ! ..

واعمل المرض الذى اوصله الى الموت ، ثم بعثه الى الحياة ، استطاع أن يبتعث فى نفسه الثقة بحواء ، حـواء المحبة المخلصة التى تعطى من نفسها بلا حساب ، وبلا تردد ، وبلا تفكير ... حواء الام !...

واحست بيد تزحف على ظهرها ، وتضمها بشدة ، وسرت فى اعطافها سخونة الجسم المكتهل الذى بجانبها ، واغمضت عينيها تحت اللمسات الحانية العطوف ، تستمرىء لذة السكينة والنشوة الهادئة ... نشوة المرأة التى ارهقت اطفها السنون ...

وسمعت همسه الخافت العذب ..

وفتحت عينيها بعد رحلتها الطويلة ، فالتقتا بعينيه فى نظرة مشبوبة ، وتصايح المدعوون من حولهما :

ـ ما هذا ؟ .. نحن ننتظر !.. نريد ان نأكل التورتة ، متى ستتنازلان باطفاء الشموع !..

نعم . عشرون شمعة !.. عشرون عاما !.. ليست كلها عذابا .. بل هنـاك ومضات من الحب جارفة يهون بجانبها كل عذاب !..

والتقى راساهما لاطفاء الشموع ، وبدا من بينهمـا راس ثالث .. راس الابنة اليافعة .

وانحنيا يقبلانها وقد تلاقت عيونهما للمرة الثانية .